

التعريف والنقد

كتاب المعاني الكبير

لابن قتيبة الدينوري (ثلاثة مجلدات)

طبعة هيدر آباد الدكن

قال السيوطي في المزهري : « ٠٠٠ آيات لم تقصد العرب الألفاظ بها وإنما قالتها فصادف أن تكون ألفاظاً ، وهي نوعان ، فانها تارة يقع الألفاظ بها من حيث معانيها وأكثر آيات المعاني من هذا النوع ، وقد ألف ابن قتيبة في هذا النوع مجلداً حسناً » .

أما المجلد الذي أشار اليه السيوطي فهو : كتاب المعاني الكبير ، فسر فيه ابن قتيبة معاني آيات وردت في موضوعات شتى : في الفرس والإبل والديار والرياح والسباع والوحوش والهوام والنساء وغير ذلك .

طبع هذا الكتاب مجلس دائرة المعارف العثمانية بجيدر آباد الدكن بالهند سنة ١٣٦٩ هـ ، وقد تولّى تصحيحه الأستاذ عبد الرحمن بن يحيى اليمني ، وأنشأ له مقدمة ذكر فيها أشياء كثيرة عن مكانة الشعر القديم وتدوين الشعر وآيات المعاني والمؤلفين في هذا الفن ثم عرّف ابن قتيبة فذكر مبدأ أمره وشيوخه والرواة عنه ومكانته في معرفة الشعر وعلوم الأدب وغيرها وحياته ووفاته ومؤلفاته ولم يغفل الأستاذ عن توضيح خصائص كتاب المعاني الكبير ومزاياه فكانت مقدمته وافية .

إلا أن كتاب المعاني الكبير لم يعثر على كل أجزائه فقد طبع منه مجلدان وذكر في خاتمة المجلد الثاني :

هذا آخر ما وجد من هذا الكتاب الجليل ٠٠٠

وسواءً أظمت أبواب الكتاب كلها أم لم تطبع ، انّا نشكر للذين طبعوه وصححوه الشكر كله فقد أضافوا بطبعه الى ميراثنا الفكري كنزاً من كنوز هذا الميراث كان مدفوناً .

يكاد يحار الإنسان في عصرنا هذا في هذا المجهود العظيم الذي بذله المتقدمون من رجال أدبنا ولغتنا في سبيل هذا الأدب وهذه اللغة ، فكأنهم فتنوا بلغتهم فخبسوا حياتهم عليها واذا أردنا أن نستقصي في آثارهم في النحو والتصريف واللغة ونتمحيق في دراستهم هذه الأمور كلها وفلسفتهم فيها فاننا نصل الى النتيجة الآتية : هل بلغت أمة من الأمم من العناية بهذه الأبواب ما بلغه العرب . فما هذه الأوقات التي صرفوها في سبيل لغتهم ، وما هذه الغيرة على هذه اللغة ، وقد بلغوا من انصرافهم اليها مبلغاً جعلنا في هذا العصر نضيع في آفاقها ، فما نلّم بقاعدة من قواعد النحو والتصريف الاّ طلعوا علينا بقاعدة تنقضها ، وما نحيط بقراءة مادة من المواد الاّ جاؤنا بقراءة تبطلها ، حتى أصبحنا نشعر بحاجة ماسة الى تسهيل اللغة وتبسيطها ، لأن العصر الذي نهيش فيه لا يتسع لما اتسعت له العصور الغابرة ، فانا نريد اللغة قريبة منا سهلة علينا ، مهمّدة لنا ، أما هذه المذاهب المختلفة فيها ، وأما هذه الآراء المتفاوتة في أبوابها فان عمرنا يضيق عنها وما قدّمت هذا الكلام عبثاً فاذا دققنا في كتاب المعاني الكبير فانا نعجب من همّة صاحبه وصبره كما نعجب من توسعه في معرفة اللغة وأصرارها ، ولكننا في الوقت نفسه اذا أحصينا الألفاظ التي فسرها في زمنه ونظرنا في المقادير التي نحتاج اليها من هذه الألفاظ في زمننا هذا فكم تبلغ هذه المقادير ، فلا شك في أن الفاظاً كثيرة قد ماتت وألفاظاً غيرها قد تحوّلت معانيها ، وما يقاس غنى اللغة الى كثرة ألفاظها وانما يقاس هذا الغنى الى ما تملكه اللغة من المفردات التي تفتقر اليها في الافصاح عن حاجاتها في كل أفق من آفاق المادة والفكر

والروح ، فكلم تعترضنا في سبيلنا في هذه الأيام أشياء وأفكار لا يسهل علينا التعبير عنها ، فليت اعتناءنا بلغتنا بعدل جزءاً من اعتناء الأولين بها .
 ولكن هذا كله لا يمنعنا عن أن نقدر كتاب المعاني الكبير حتى قدره
 وعن أن نرى فيه كثراً من كنوز ميراثنا سواء أكانت الألفاظ التي فسرت
 فيه مستعملة في يومنا هذا أم كانت غير مستعملة ، فهو آية من آيات البحر
 في اللغة ومعرفة معاني الألفاظ في مواضعها ، وهو آية من آيات همة المتقدمين .